عالم الطفولة

Mein Kind, wir waren Kinder.
H. Heine

عادت طيارات الأطفال إلى ملكها الجوى بعد ست سنوات من حرب البر والبحر والجو . وها هى ذى ترتفع فى كل ساعات النهار من شاطئ البحر الدانى إلى علو منزلى . وقد تعلو عنه وعن أسطح المنازل المجاورة ، يتبعها ناظرى ، ويحلق معها شعورى ، حتى لأنسى الحاضر والماضى القريب وأعود بالذكرى إلى سنتى العاشرة وما قبلها أو بعدها بقليل ، وأنا ممسك بالعنان الرفيع للطيارة المحلقة كالجواد الطائر . أتركه لها رويداً حتى لا تنطح فجأة برأسها وتختنق بذيلها إذا التف حول رقبتها . ولكنها تطلب المزيد من الحرية والارتفاع ، وأنا أرخى لها العنان ما بقى معى خيط . ثم لا يبقى من الخيط إلا طرف طليق ألفه حول ذراعى كآخر قيد يحتفظ لى بطيارتى فى كبد السماء . هو صك الألفة بين صديقتى الطائرة ، وبين قلبى الواثق ونظرى المعجب .

وقد أرسل لصديقتى الهوائية رسالة الهوى ، وعربون المحبة ، خاتماً ربط به منديل يحمله الهواء منزلقاً على طول الخيط ، حتى يوصله إلى قلب طيارتى ، حيث تجتمع الخيوط الثلاثة التى تزنها فى الهواء ، وتتحكم بحياتها فى الفضاء .

لم تكن الطيارة فى طيرانها إلا الحلقة الأخيرة من سلسلة نشاط وحركة تبدأ صباحاً بزيارة حانوت العطار لشراء الخيط — أو النير كما كان يسمى — والورق الملون ، ومسحوق الزجاج الذى نصنع منه صمغاً خاصا ، ثم بالبحث عن عصا من البوص الجيد عند صانع جوز التمباك .

فاذا عدت إلى المنزل ، جلست فى ركن من « الفسحة » خال من الأثاث ، ثم بدأت فى تشطير البوصة طولاً إلى ثلاث عصى ، أضعها متعارضة وأربطها من وسطها فتصبح أقطاراً لشكل سداسى متساوى الأضلاع . وأصل بين أطرافها بخيط يحول المسدس الرياضى إلى مسدس واقعى ، هو هيكل الطيارة .

وأخلط مسحوق الرسراس بالماء لأكون معجينة صفراء لزجة ، وأقص أوراق الملونة إلى مثلثات ألصقها بالهيكل وأنا ألاحظ المقابلة بين ألوان هذه المثلثات ، وهى محدودة لا تتعدى الأخضر والأصفر والوردى والأحمر .

وأدور قصًا فيما بقى من الورق أحوله شرائط أو غدائر ، أعقصها حول طول من الخيط فتكون ذيل الطيارة ، وهو على شكل « واى » طويل الساق . وأصل طرفى الواى بضلع من أضلاع الهيكل .

ثم أنتقل من هذه الهندسة المسطحة إلى هندسة فراغية ، حين أنشئ هرما خياليًا متساوى الأضلاع ، بواسطة ثلاثة خيوط ، أحدها يربط فى مركز الطيارة ، ويربط الآخران بطرفى الضلع المقابل لضلع الذيل . وهـذا الهرم الخيالى هو « الميزان » الذى يتوقف عليه ثبات الطيارة فى الجو من جهة ، ومقدرتها من جهة أخرى على تلقى تيار الهواء الأفقى بانحراف يكون من أثره أن تأخـذ فى الارتفاع . فهو أهم عمل هندسى ميكانيكى فى وضع طيارتى ، وآخرها .

ثم إذاً إعداد الطيـارة فى هدوء وعلى انفراد ، لا يقطع علىّ عملى إلا أولئك الآدميون فى إصرارهم على الحاجات المادية لطفلهم ، فهم يدعونه إلى الغداء بالرفق أول الأمر ، وبالعنف فى آخره .

وأى طعم للأكل فى ذلك اليوم المجيد ، ولم يعد الطفل الصناع من سكان هـذا الـكوكب الأرضى ، إنما هو روح حائم حول طيارته ، متعلق بتاجها الملون وغدائرها التى سوف يعبث النسـيم بها فيثير منها خشخشة ناعمة تخفت رويداً كلما ارتفعت الطيارة فى الجو .

وأنزل إلى الأرض الفضـاء خلف المنزل لأشرع فى التحليق ، فروحى هو الطائر مع طيارتى . أما ذلك الجسم الصغير الباقى على الأرض فان هو إلا ثقل فى آخر الخيط ، «أنجر» يربط السفينة المحلقة فى أعلى عليين بقرار هذا البحر الشفاف .

قد يكون الهواء ريحاً على سطح الأرض ، فلا أحتاج إلى أكثر من رفع الطيارة فوق رأسى ممسكاً بميزانها ، فيحملها الريح عنى . وقد يكون نسيما ناعساً فأضع الطيـارة بحساب على الأرض ، وأبتعد عنها تاركاً لها طولا كافياً من الخيط ، ثم أجرى وأنا أسحبها فترتفع إلى درجة كافية لتلقى رياح الطبقات العليا من الجو .

الطبقات العليا من جو الطفولة ، هى حيث ترقى الحمائم واليمام ، وإلى ما فوق

ذلك حيث يرى الإوز العراق — كما كنا نعرفه ، وهو بط الصيادين — سائراً سيره فى أقواس وخطوط منكسرة ليتم رحلة الشتاء او الصيف . الطبقات العليا التى تهبط منها أغاريد الكروان فى الليالى ذات الكواكب والنجوم الزاهرة .

أطباق الجو العليا يهبط منها دهنش وصاحبته الجنية يحملان الأميرة بدور بنت الملك الغيور إلى قبو قمر الزمان ابن الملك شهرمان .

ما برحت إلى اليوم — وقد طويت ورائى مرحلة العمر الوسطى — أسمع حفيف أجنحة دهنش والجنية ، بالوضوح الذى كنت أسمع به حفيف طيارتى ذات الألوان الزاهية ، وخشخشة ذيلها تتطاير غدائره فى أشعة الشمس كألسنة ملتهبة .

فكل شىء فى عالم الطفولة وحدة كاملة ، صورة من وحدة الوجود ، لافرق بين حقائقه والأحلام .

هو من عالم الطفولة ذلك الصندوق الخشبى الملون ، يحمله مارد زرى الهيئة ، أغبر الملامح ، ينفخ فى صوره فنجرى إلى صندوقه وقد وضعه عن ظهره أمام المنزل ، ودعانا إلى الجلوس على دكة متهالكة أمام عيون بلورية فى جانب من الصندوق . ثم يغطينا بخرقة بالية ، لا يمكن إلا أن تكون قطعة من بساط سليمان . فما إن نجوس بأبصارنا خلال العيون البلورية حتى ننتقل إلى عالم غير عالمنا ، تتحرك فى عرصاته صور عزيزة ويونس وأبى زيد الهلالى والزير سالم وابن ذى يزن ، وغيرهم من الأبطال الذين لايتطرق إلينا الشك لحظة فى وجودهم . وينتهى العرض ببضع بكرات مشدودة إلى خيط ، يديرها الساحر بيده فتجرى وسط ميدان فسيح « بكركبة » كالرعد ، وتمثل آخر العجائب ، عجيبة العصور الحديثة : الوابور . رحلة بدأناها فوق بساط الريح وختمناها على متن البخار .

من عالم الطفولة قصص الجدة والخالة إلى جانب المدفأة فى ليالى الشتاء . رأيت فيها الأميرات والصعاليك ، والأبطال والسلاطين فى أسمالهم وحللهم ، بين جدران قصورهم ، أو فى مسالك تيههم الطويل . رأيت الجن الطائر فى سماواته ، والجن المختفى فى كهوفه يشق جوانب الجبال وسطح الأرض ، كما يشق السابح صفحة الماء . سمعت أنين العاشقين فرق السحر بينهم فراقاً فيه قسوة الجحيم وعذاب الطنطال . ولا أنسى من بين هؤلاء اثنين أحالها المجوسى زوجاً من الطيور ، وحبسهما فى قفصين متواجهين لا يتلامسان . يرنو كلاهما إلى الآخر فى حسرة من وراء قضبان سجن مزدوج : سجن القفص ، وحبس الجسم المريش الغريب .

أحرارهم الأطفال . . . والمتصوفون . فاذا كان المتصوف لا يملك إطلاق روحه الحبيس فى مادة الجسد إلا بجهد العرى والجوع والورع والتأمل ، فان الطفل يتنقل بين عالمه المادى والروحى بسهولة المارد يخترق الجدار، ويرتفع عن مادته فى يسر الطيارة الورق يحملها النسيم إلى علٍ . وما الصلة بين الطفل فى جسده وفى روحه بأكثر من الخيط الرفيع يصل بين يده الصغيرة وألعوبته الجميلة فى أطباق الجو .

يرى الطفل بروحه أكثر مما ينظر بعينيه ، فيضفى الجمال على كل الأشياء وكل المخلوقات . فما هى تلك الطيارة سوى أوراق ملونة رخيصة ألصقت بصمغ قذر إلى قطع من البوص والخيط ! وهذه الأناسى السوقية فى الموالد والأعياد تتسربل فى أقشة قذرة مهلهلة ، وتصطبغ بأدهان فاقعة ، زينتها الصفيح وأزرار الصدف وشعر الدواب : ملك الزمان يعتطى جواده الأشهب — خلف حصان جرار ! وأبطال البادية يداورون ويحاورون ، ضاربين بسيوفهم البتارة دروعاً كأنها قطع من الليل البهيم — أو هى قمر صفيحة وقضبان خردة سواها السمكرى فى رمضان ؟

وهذا اللاعب الاسكندرانى فى سراويله السوداء وقميصه المزركش ومنطقته الكشمير ، يرفع على طرف قدمه العارية مشعلا ، ويحجل بقدمه الاخرى ، ثم هو يركل المشعل إلى أعلى ليتلقاه على أرنبة أنفه ، أو فوق يافوخه . وحوله رفقاؤه يقرعون طبولهم المغاولة إلى أعناقهم .

صفيح فى صفيح ، وورق ملون ، وطراطير حمراء وصفراء ، وقطع من الزجاج والمرايا ، وأسمال قذرة تتفرك ، وأقدام حافية ، ورجال موشومون .

صفيح فوانيس رمضان ذات الزجاج الملون ، ملايات بيضاء تغطى قضباناً حديدية ، مصابيح الذكر الكبيرة تلتف حولها العامة فى ليالى الحضرة . وسكر مغلى رصع بقطع من الملبس والنقل هذا « العلى لوز » .

وما هو الاراجوز البلدى ؟ خشب ملونة مزوقة ، رسمت فى أعلاها وجوه ادميين أو قردة ، وألبست خرقاً جمعت من قمامة . يحركها مواطن عزبة الصفيح وهو مختبىء فى جوسق من الخيش المرصع بأنصاف الملاليم ، وعقود البكر والودع . يتكلم بصوت الببغاء ، فتغلبه حشرجة شعب قرحها الحشيش والتمباك . والأراجوز من بنى عمومة عرائس المولد ببشرتها السكرية وغلالاتها ذات

الورق المفضض ، وشمرها الفاحم تعلوه المراوح تتلألأ فى ضوء المصابيح الغازية منتظمة على مدرجاتها الخشبية فى صفوف « البالّـو » أو طوابير الاستعراض ، تحف بها الخيل والغزلان والسباع والهررة حمراء ووردية وبيضاء .

أسرة واحدة تلك الدمى من حلوى وخشب وجص وقش ، وصور صندوق الدنيا ، وملاعب القرود وأتانه ، والحاوى وثعابينه ، والاسكندرانى ونقاريته ، وضارب الدف ، والموقع على الناى والأرغول .

أسرة واحدة وعالم واحد ، الموالد وحضرة الأولياء ، وأسراب وَحَوِى ، وفرسان الأراجيح ، وبائعات على لوز ، تجسدت فيها قصص الشاعر بربابته ، والشاعر بغير ربابته فى أحياء قاهرة المعز والصالح وأتابك .

أسرة طفولتنا ودنيا خيالنا . ظلال ملونة تلقيها أحلامنا فوق صفحة يقظتنا البيضاء . فاذا أطفأ المعلم مصباحه تبددت الخيالات ، وفركنا أعيننا لنصحو الصحوة الأخيرة .

صحوتها ذات يوم أذكره جيداً ، عند واحدة من قريباتنا ، بمحضر نسوة تلقينى كما يتلقى كهنة التبت عظيمهم الطفل دلاى لاما .

فقد خرج رجل يضع فى كفى فنجاناً يحتوى على قليل من القهوة ، وينضح جبينى بالزيت ، ويغطى رأسى بملاءة ، وهو يأمرنى أن أديم النظر فى قاع الفنجان .

عرفت أن الرجل فاتح « المندل » ولا يفتح إلا بين يدى صبى دون البلوغ . وكم سمعت بالمندل وكان سحراً من أسحار طفولتى ، وأملا بعيد المنال من آمالى . متى يفتح المندل لعينى فأرى الخدام فى قاع الفنجان ، وآمرها فتكنس وترش ، ثم يجىء السلطان ووزراؤه فأسألهم أين اختفى فلان بن فلانة ، ومن أى طريق نتعقب حرامى الحلة والحلى .

جعل الرجل يتلو تعاويذه على رأسى ، لغة تلقيتها عن دهنش وفصيلته ، فيها وسوسة حلى بغلة العشر ، وفحيح ذى العيون المشقوقة بالطول ، والرجل المسلوخة .

أنظر وأدقق النظر لعلى أبصر ما توقعته طول طفولتى ، على أن صفحة القهوة لم تتحول عن السواد . ولكن . . . ! ما هذا البصيص فى قاع الفنجان ؟ أيتسع فأرى الساحة والخدام ، والسلاطين والأعوان ؟

وا أسفا ! لم يكن سوى انعكاس ضوء خافت نفذ من فرجة فى الغطاء الذى أسجاه فاتح المندل فوق رأسى وفوق ذراعى الممدودة بالفنجان .

تعب الساحر وهو يسألنى : « هل حضروا » وأنا أجيب بالنفى يقيناً أخفق الرجل ، أو أخفق الصبى .

فكشف الغطاء عنى واعتذر للسيدات ملقياً علىّ تبعة خيبته :

— الولد أدرك !

احمرت وجنتا الصبى المسكين خجلاً ، إذ فهم ما يعنيه الساحر السوق بهذه الكلمة العامية .

ولكنى أفهمها اليوم بمعناها الفصيح . فقد بلغ الصبى مرتبة الادراك . وكان المندل الذى لم يفتح عليه هو آخر باب من أبواب عالم اغلق وراءه ، هو عالم الطفولة وفردوس أحلامها .

***

فى هذه اللحظات التى اقضيها ساهماً ساكناً أمام البحر ، أجرى يدى على سبحه الذكريات ، وأمضى ببصرى عبر هذا البحر إلى بحار وأراضين بعيدة ، عرفت أنى رحلت أجمل رحلاتى ، وزودت فيها باقدس زادى ، حين اعترضت أفقى طيارة حمراء صفراء وردية حضراء ، يطيرها صنوٌ لى ، تفرق بينى وبينه خطوات معدودات فى الفضاء ، وتفصلنى عنه أعوام وأعوام لا أود لها عدًّا .

Mein Kind, wir waren Kinder,
Zwei Kinder, klein und froh (١).

حسين فوزى

---

(١) هذا الشعر من قصيدة للشاعر الألمانى « هنريش هينى » يقول فيه لأخته « يا أخية ! لقد نعمنا بالصبا ، حين كنا طفلين مرحين » .